الفصـــل الســـادس

====

أهم السلطنات العفرية منذ القرن السادس عشر حتي القرن العشرين

===

المحتويـــات :

١ – كيفية سقوط مملكة أنكالاوبروز زعامة حرا الماحس ٠

٢ – الوضع العـفرى قـبل مـجيء الاســتـعـمــار الأوروبى فى المنطقة ٠

٣ – سلطنـــة رحيتـــا٠

٤ – سلطنة تاجوره٠

٥ – سلطنة جو بعد

٦ – سلطنة قريفو (بيرو) ٠

٧ – سلطنة أوسا ٠

١ - كيفية سقوط مملكة أنكالا وبروز زعامة حرا الماحس : (١)

هناك قصة طريفة ذات طابع أسطورى يرويها العفريون عن كيفية سقوط مملكة أنكالا، إذ يقول الرواة إن أهل أنكالا كانوا يعاملون الرعيةباستعلاء وازدراء - كعادة الحكام فى تلك العصور - وكانت من بين القبائل العفرية التى تخضع لسلطة أنكالا قبيلة (عبلى) ، الموجودة حاليا فى جيبوتى بنفس اسمها القديم وهى تنقسم إلى فرعين (دتا عبلى) و (عسا عبلى) أى (عبلى السمراء) و (عبلى الحمراء) ويوجد في إريتريا أبناء عمومتهم (حضرمو) وهم ينقسمون أيضا إلى فرعين (دتا حقى) و (عسا حقى) أى (حقى الأحمر) و (حقى الأسمر) ٠

وكان لقبيلة عبلى زعامة محلية خاصة بها من بين أبنائها، وزعيمها فى تلك الفترة كان يدعى (على عبليس) وكان له قريب يدعى (عمر يوسف) ، وقد كان متزوجا من الأسرة المالكة وقيل إنه كان متزوجا بنت السلطان٠ وقد قتل عمر يوسف بأمر من السلطان ، وكان قد أنجب من زوجته ابنا تكفل به قريب والده على عبليس، وأشرف على تربيته وإعداده لمهام كان يخطط لها فى صمت بكثير من الصبر والمثابرة ، وعندما شب عن طوقه وأجاد الفروسية

(١) من الروايات المحلية التى يتناقلونها أبا عن جد ، وقد كتبت هذه القصة عن رواية أحد المشايخ الكبار فى أديس أبابا ٠ والجدير بالذكر أن حكايات العفر الشفهية ليست مستخدمة بوصفها مصدر معلومات فى كثير من الدراسات عن العفر، وفى اعتقادى بانها أحسن المصادر ٠ وأوجه القصور فى الحكايات الشعبية هو افتقارها إلى تحديد تواريخ الأحداث ٠

وجميع أنواع فنون القتال وفن قيادة الرجال، اتفق معه على خطة ذكية، وهى أن يذهب خلسة إلى منطقة عد عيلا فى تاجوره وأن يتسلق شجرة كبيرة يتجمع الناس تحتها وحولها عادة إلى آخر الخطة التى سيأتى ذكرها ٠

وفى الصباح حضر على عبليس إلى المنطقة ونادى على المواطنين الذين كانوا فى المنطقة، وأعلن أمام الملأ بأنه يوجد شخص غريب على الشجرة، وتجمع الناس لرؤية هذا الشخص وطلبوا منه النزول من الشجرة فاشترط للنزول من الشجرة تحقيق مطالبه حسب نصيحة قريبه وكفيله ومربيه على عبليس ، وتمثلت مطالبه فى : (١) تزويجه بفتاة بكر ٠(٢) أن يوضع تحت قدميه جلدين أحدهما أحمر والآخر أبيض لينزل عليه من الشجرة دون أن تلمس قدماه التراب ٠ فوافق على عبليس على تزويجه ابنته البكر حسب الاتفاق بينهما ووضع له جلدين أحمر وأبيض ، فاختار النزول والجلوس على الجلد الأحمر وأعلن للحاضرين أنه يدعى حرا الماحس (الرجل الذى أصبح فوق الشجرة) و (عسا مرا) وهو (الرجل الأحمر) ٠ ومن هنا أخذ بعض المؤرخين الذين كتبوا عن أمة العفر إطلاق اسم (عسا مرا) على بعض أحفاد حرا الماحس٠ ولكن هناك رواية عفرية أخرى عن قصة عسا مرا وعدو مرا وسوف نعمد إلى ذكرها فى الفصول القادمة ٠ وهكذا وبظهور شخصية حرا الماحس بدأ عهد جديد فى منطقة العفر تحت زعامته ثم تحت زعامة أبنائه وأحفاده من بعده ٠

وبعد هذه الحادثة التى حبكها على عبليس حبكا محكما ، بدأت القبائل العفرية التى كانت تعانى من جبروت سلاطين أنكالا تبحث عن منقذ يحررها منها ، فأخذت تلتف حول حرا الماحس الذى استغل الأمر بذكاء شديد مستعينا

بعمه وحماه ومستشاره المخلص على عبليس ،فجمع حول رايته قبيلة عبلى والقبائل العفرية الأخرى التى أعلنت ولاءها له ، فأخذ فى تنظيمها وإعدادها للمواجهة مع قوات السلطان· وبالفعل تمت المواجهة المرتقبة فحقق حرا الماحس انتصارات تلو الانتصارات، بينما أخذت قوات السلطان فى التراجع نتيجة الهزائم التى منيت بها ·

سلطنات أبناء حرا الماحس :

وفى عهد أبناء حرا الماحس ، وبعد أن تم لهم الاستيلاء على أجزاء كبيرة من البلاد، أقاموا أول سلطنة لهم فى رحيتا ونصب أكبر أبناء حرا الماحس سلطانا عليهم وكان اسمه (عد على) أى (على الأبيض) ·

ووضع الشيخ على عبليس – الذى كان العقل المفكر والمخطط لتأسيس مملكة حرا الماحس – فى نفس الوقت أسس وضوابط وطقوسات لا تكتمل الشرعية إلا بها ، وهى أن يتم تتويج السلطان أو الملك على النحو التالى :

١ – أن يتولى على عبليس نفسه ، ومن بعده أحفاده وضع التاج على رأس السلطان ·

٢ – أن تقوم كل قبيلة من القبائل العفرية الرئيسية فى المنطقة، والتى ساندت حرا الماحس فى كفاحه ، بالاشتراك فى تنصيب السلطان؛ مثل أن تغسله قبيلة معينة وتلبسه قبيلة ثانية وتعلن النبأ على الملأ قبيلة ثالثة إلخ·

ولا تزال هذه التقاليد متبعة حتى الآن فى كل من سلطنة رحيتا وسلطنة تاجوره فى جمهورية جيبوتى ودولة إريتريا ، حيث يتوارث الحكم فيها سلالة أسرة عد على الابن البكر لحرا الماحس ·

والجدير بالذكر أن نظام السلطنتين يقتضى أن يكون للسلطان نائب باسم الوزير من نفس أسرته ولكن من فرع آخر · وفى حالة وفاة السلطان أو عجزه عن أداء مهامه يحل الوزير محل السلطان، ويختار ابن السلطان السابق وزيرا له ، وفى حالة وفاة الوزير يُختار الوزير من نفس أسرة الوزير المتوفى·

وهكذا تتم عملية تداول السلطة فى إطار الأسرة الحاكمة بطريقة ديمقراطية وبواسطة أهل الحل والعقد من كبار الشخصيات العفرية من القبائل المختلفة التى تقع فى إطار السلطنة· وهو الأمر الذى ساعد على الاستقرار وحال دون حدوث الصراع على السلطة، حيث كان يتم انتقال السلطة بطريقة مرنة وسلسة بفضل هذا النظام الذى يعود الفضل فى وضعه إلى عبقرية الشيخ على عبلس وبُعد نظره ·

٢ - الوضع العفرى قبل مجىء الاستعمار الأوروبى فى المنطقة :

قبل قدوم الاستعمار الأوروبى كان العفر يعيشون فى ظل سلطنات مستقلة ذات حدود جغرافية واضحة المعالم تنتقل فيها السلطة بالوراثة وكانت العلاقات التى تسود بين هذه السلطنات تتأرجح بين التعاون والتشاور حينا وبين التنافس والهيمنة لتشكل كل واحدة منها وحدة سياسية أوسع فى إطار السلطنات الوراثية حينا آخر كما سيتضح فيما بعد (١) ·

---

(١) أحمد يوسف قرعى : مرجع سابق ·

ولقد كان للسلطات العفرية نظاما سياسيا تقليديا مستقرا متمثلا بوضوح فى الحدود الجغرافية · وقد كانت لهم سيادة على الأنظمة التجارية وفرض الرسوم على القوافل حاملة البضائع عبر الأراضى العفرية فى البحر الأحمر · فقد كان لهم تاريخ سياسى طويل فى الحكم الذاتى المستقل ·

وفى الحقيقة ، فى ذلك الزمان ، كانت للعفر ولايات وسلطنات قوية وذات نفوذ فى القرن الإفريقى (١) ·

١ - سلطنة رحيتا : (٢)

سلطنة رحيتا هى أول سلطنة أقامتها أسرة حرا الماحس بعد التخلص من نفوذ الأسرة الأنكلية، ونصب على السلطنة أكبر أبناء حرا الماحس والذى كان يدعى (عد على) وكانت تشمل الساحل الممتد من رأس بيلول فى الشمال حتى مدينة أبوخ (حيو) الواقعة على مداخل خليج تاجوره فى الجنوب، وكانت تشترك فى الحدود من الداخل مع سلطنة أوسا وسلطنة تاجوره وسلطنة قريفو (بيرو) · ويتوارث حكم هذه السلطنة حتى الآن أسرة قبيلة عد على التى تحكم أيضا سلطنة تاجوره، وهم أبناء عمومة ينحدران من عد على الابن البكر لحرا الماحس كما ذكرنا · وتوجد فى إطار سلطنة رحيتا عدة قبائل عفرية أهمها : عد على، ياسوما، كونعيلى بورا، ميلا، عد على شيخا وراتليه·

---

(١) عبدالله عمر آدم : دولة فى محنة ، ص ٥٤ ، بعد الترجمة ، استكهولم ·

(٢) عوض داود محمد : المسألة العفرية فى القرن الإفريقى ، القاهرة ١٩٩٣ ، ، ص ١٧ ·

وهى ترمز إلى وحدة إقليمية فهى أقصى الحدود الجنوبية لمنطقة دنكاليا وهى السلطنة الوحيدة فى إريتريا، وهى أقوى السلطنات العفرية إقليميا وسياسيا · وهناك سبع قبائل تتعايش فى منطقة سلطنة رحيتا · كما أن سلطة السلطان تمتد لتشمل ٣٥ قبيلة، ويتم الاعتراف بهذه السلطة حيث تعطى كل عائلة السلطان ضريبة سنوية تتمثل فى بقرة واحدة ·

٢ - سلطنة تاجوره :

سلطنة تاجوره هى من أقدم السلطنات العفرية - التى أقامتها أسر حرا الماحس مع سلطنة رحيتا - وأعرقها ، وكانت تمتد من جنوب سلطنة رحيتا حتى بحيرة عسال حيث تبدأ حدود سلطنة جوبعد التى تحدها من الغرب· وهذه السلطنة اشتهرت بالتجارة لكونها إحدى طرق القوافل الرئيسية للحبشة منذ زمن بعيد (١) مع المناطق العفرية التاريخية ، وتوجد فى إطارها قبائل عدة أهمها : عد على شيخا. حوبا، سنفودا، معنديتا، ويعما، أفرودى وسعد على·

وهذه السلطنة لها تاريخ عريق فى التجارة مع الجزيرة العربية والقارة الإفريقية وهى تقع شمال جيبوتى· وبعد احتلال فرنسا لجيبوتى أنهت دور السلطنة السياسى، لكنها سمحت للأسرة الحاكمة بالاحتفاظ بسلطتها الشكلية تحت إشراف الإدارة الفرنسية ، وهم لا يزالون يختارون سلاطينهم كما كان الأمر فى السابق ·

---

(١) عوض داود محمد : مرجع سابق ، ص ١٧·

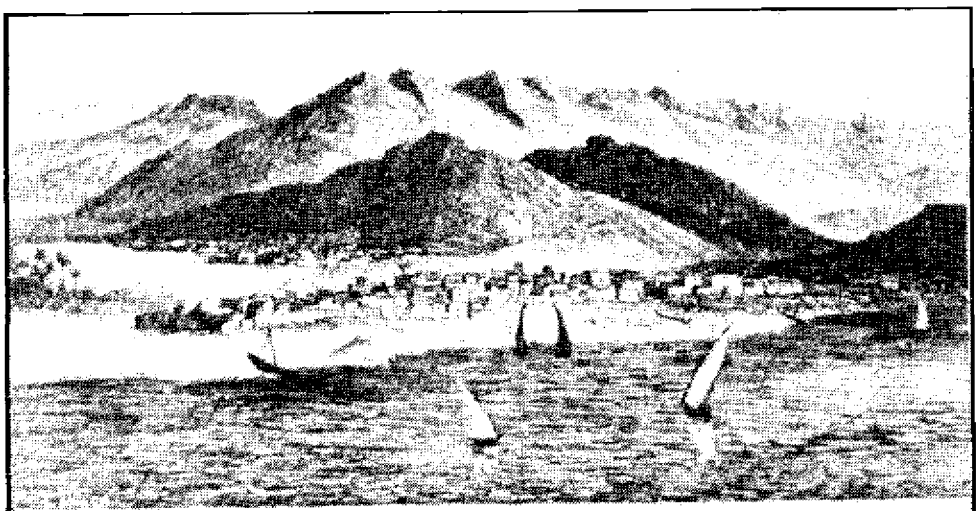

صورة لسلطنة تاجورة فى العصور الوسطى

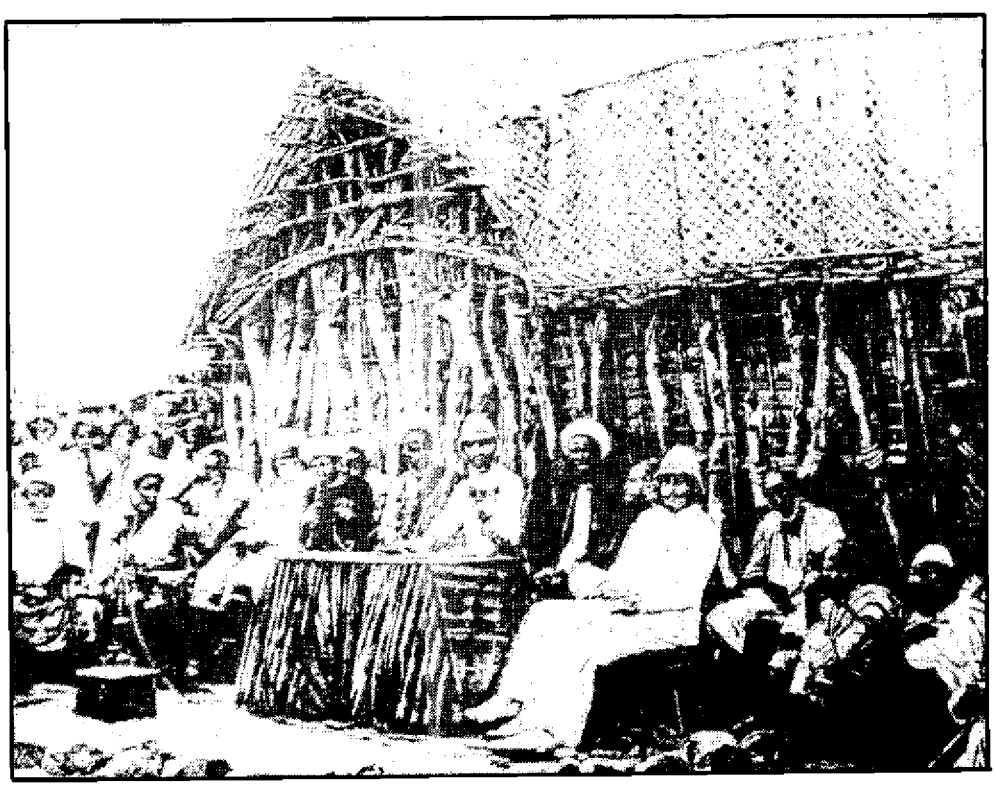

اجتماع سلطان تاجورة مع الوفد الفرنسى

وهكذا تمكن أبناء حرا الماحس من إقامة سلطنتين لهم فى الأراضى التى كانت تحكمها مملكة أنكالا، ونصبت عليهما السلاطين من أسرة عد على الذى هو الابن البكر لحرا الماحس كما ذكرنا · أما أبناء الابن الثانى لحرا الماحس إبراهيم الذى كان يطلق عليه (موداىلى إبراهيم) وكنى بذلك لكونه كثيف الشعر ، فقد استمروا فى فتوحاتهم وتوسعاتهم فيما تبقى من الأراضى تحت سيطرة سلطان أنكلا الذى كان فى تراجع مستمر تحت ضربات أبناء حرا الماحس المتصاعدة·

وقد استقر سمبو لكعولى ابن موداىلى إبراهيم وحفيد حرا الماحس بوادى دمهو بالقرب من عد عيلا بجيبوتى بين ميلا وتاجوره، وسمى هذا الوادى بدمهو نسبة لوجود أشجار السواك التى يوجد منها الكثير فى هذا الوادى والذى يسمى دمهو باللغة العفرية · ومن هنا أخذ اسم دمهويتا الذى يطلق على أحفاد سمبو لكعولى المنتشرين فى أنحاء العفر قاطبة ·

تقدم أحد أبناء سمبو لكعولى إلى الجنوب بمنطقة دبنى وأسس هناك سلطنته التى سميت فيما بعد بسلطنة (جوبعد) ، بينما تقدم الابن الآخر (حيرى حمدو) إلى الشمال ، وظلا يواصلان فتوحاتهما فيما تبقى من الأراضى تحت سيطرة أنكالا· وبعد غزوات متواصلة وحروب مريرة تمكن الطرفان من إقامة سلطنتين جديدتين هما : سلطنة جوبعد وسلطنة بيرو ·

وفى نفس الفترة تقدم أحد فروع منوداىلى إبراهيم فى منطقة الوسط

باتجاه عيلا دعر ومندا حتى إقليم أوسا بقيادة قائدهم العظيم كيعو، وتمكنوا من هزيمة قوات الإمام سلمان الذى كان يحكم منطقة أوسا وأقاموا بها سلطنتهم · ويعود الفضل فى تكوين سلطنة أوسا إلى الفتوحات التى قام بها القائد الفذ كيعو والذى مهد لقيام السلطنة فى عهد إيداحس بن كدافوا ·

ولكن ظل أبناء سمبو لكعولى وأحفاده من بعدهم يرجعون إلى أبناء عمومتهم المنحدرين من عد على فى سلطنتى رحيتا وتاجوره فى كل أمورهم، كما كانوا يحملون إليهم جزءا من الخراج والغنائم التى يستولون عليها كنوع من الولاء للبيت الكبير ·

٣ - سلطنة جوبعد : (١)

بعد أن انفرد أبناء عد على ابن حرا الماحس بسلطنتى تاجوره ورحيتا - كما ذكرنا سابقا - ذهب أحد أبناء سمبو لكعولى إلى الجنوب باتجاه منطقة دبنى وأسس هناك سلطنته الخاصة به والتى سميت بسلطنة جوبعد، نسبة إلى المنطقة التى أقيمت بها والتى كانت تمتد جغرافيا من مدينة دخل فى جيبوتى - التى كانت عاصمة للسلطنة - حتى جبال إيرمى ثم إلى حراسا ومنها إلى

---

(١) سمت هذه السلطنة باسم المنطقة التى تشغلها وتمتد جغرافيا من منطقة دخل (عاصمتها الحالية) ·

بحيرة (أبحى بد) وحتى بحيرة عسال [1] . وتوجد فى إطارها عدة قبائل منها دبنى، عدو رسو.

وهذه السلطنة فى مرحلة من مراحل التاريخ كانت من أقوى السلطنات ، ووقفت فى وجه الاستعمار الغربى وتصدت له بقوة وصلابة ، وتقع هذه السلطنة فى الجنوب والجنوب الغربى من جمهورية جيبوتى .

٤ - سلطنة قريفوا (بيرو) :

تحدها سلطنة رحيتا من الشرق وسلطنة أوسا من الجنوب ، وتحدها من الغرب المرتفعات الهضبية الحبشية ، وتبدأ سواحلها من شبه جزيرة بورى الواقعة جنوب مصوع حتى رأس بيلول عند الحدود مع سلطنة رحيتا ، وتاريخ هذه السلطنة ملئ بغزواتها مع الحبشة ودفاعها المستميت عن أراضيها وعن استقلالها ضد الاعتداء المتكرر من جانب نصارى الحبشة والاستعمار الإيطالى. [2]

---

(١) لجنة الثقافة والإعلام برابطة الطلاب العفر بالقاهرة ، مرجع سابق ، ص ٢٢.

(٢) عوض داود محمد : مرجع سابق ، ص ١٧ .

وقد قام بتأسيس هذه السلطنة أحد أحفاد حيرى حمدو ابن سمبو لكعولى، حيث إنه عندما تحرك أحد أبناء سمبولكعولى إلى الجنوب ليؤسس فيها سلطنة قوبعد، تحرك هو شطر الشمال ، واستمرت فتوحاتهم حتى أقام حسن دبى (عسقالى) من أحفاد حيرى حمدو ابن سمبو لكعولى سلطنة قريفو (بيرو) ٠

ففى ظل المد الاستعمارى الذى شهدته المنطقة وتقاسم الدول الغربية لتركة الإمبراطورية العثمانية، قامت شركة روباتينو الإيطالية بتأجير قطعة أرض فى ميناء عصب من الشيخ إبراهيم الذى كان عمدة لمدينة عصب تحت إمرة سلطان رحيتا حيث كانت عصب جزءا من سلطنته ٠

وجدير بنا هنا أن نشير إلى أن معظم المؤرخين الأجانب الذين كتبوا عن تأجير شركة روباتينو لقطعة أرض فى عصب، أطلقوا على الشيخ إبراهيم لقب السلطان وهو خطأ وقع فيه أولئك المؤرخون ، لأنه لم يكن هناك ما يسمى بسلطنة عصب، وبالتالى لم يكن هناك ما يمكن أن نسميه بسلطان عصب ، إنما كان بها عمدة يعينه السلطان ويصرف الأمور فيها بتوجيه منه (١)٠

عند نزول الإيطاليين على الشواطئ الإريترية كانت هذه المناطق تخضع إداريا للإمبراطورية العثمانية، وكانت سلطنة قريفو على صلة وطيدة بدولة الخلافة العثمانية ٠ وكان سلطانها فى تلك الفترة يدعى حيسما أحو، والذى

---

(١) عبدالله عمر آدم : مرجع سابق ٠

قاوم بصلابة التغلغل الإيطالى فى أراضى سلطنته، وعندما شعر بدنو أجله أوصى أبناءه بمواصلة القتال ضد الإيطاليين حيث اعتبر هجومهم غزوا صليبيا مسيحيا يستهدف الإسلام والمسلمين فى المنطقة. وقد نسق أبناء السلطنة مع إخوانهم وأبناء عمومتهم فى شبه جزيرة بورى لمقاومة الإيطاليين وقد كان يقودهم الشيخ على عثمان بورى الملقب بـ (نخرة ياقلى) وتعنى باللغة العفرية محطم نخرة (*). واستمرت مقاومة سلطنة قريفو للغزو الإيطالى من عهد السلطان حيسما والسلطان محمد حيسما من بعده حتى عهد السلطان الشهيد يسن حيسما، وباستشهاده تمكن الإيطاليون من تدمير السلطنة وذلك فى عام ١٩٢٩م.

ومن القصص المثيرة فى هذه الحرب الإيطالية العفرية القضاء على بعثتين إيطاليتين كانتا فى طريقهما إلى مناطق العفر بهدف الاستكشاف والتجسس ، حيث أرسلت السلطات الإيطالية بعثة من إرافلى إلى بدة، وتمت تصفيتها فى دودوم التابعة لسلطنة قريفو. أما البعثة الثانية التى تحركت من بيلول فقد تم القضاء عليها بالقرب من منطقة دابو التابعة لسلطنة أوسا. وكان رئيس هذه البعثة يملك كلبا بوليسيا اصطحبه معه، وعندما قُتِل قطع

(*) نخرة جزيرة نائية تقع فى أرخبيل دهلك وكان ينفى إليها المستعمرون الإيطاليون قادة المقاومة الوطنية الذين يخشون بأسهم ليلقوا حتفهم هناك. ولم يخرج حيا – أى ممن تم نفيهم إلى تلك الجزيرة – سوى الشيخ على عثمان الذى كسر الباب الحديدى للسجن وحطم قيوده وقضى على الحراس الإيطاليين، وأفرج عن المساجين وأخذ القائد الإيطالى أسيرا، وأبحر بهم إلى بورى ليواصل من جديد مقاومته ضد المستعمر الإيطالى . ولذلك سمى بـ (محطم نخرة).

الكلب ذراعه وعاد به إلى مقر حاكم عصب الإيطالى الذى تعرف عليها من ساعة يده وأدرك ما حدث للبعثة ، فجمع أعيان العفر فى المدينة وسألهم عمن قتل أفراد البعثة فقالوا له : إنهم أهل سلطنة قريفو · فسألهم ماذا يفعلون عادة عندما يقتل لهم عزيز لديهم فأجابوه قائلين : إننا نقيم له نصبا تذكاريا من الأحجار على شكل هرم ونسميه (ويدل) حتى نأخذ له الثأر · وبالفعل أقام الحاكم الإيطالى نصبا بالمواصفات التى ذكرها له العفريون، وكان هذا النصب التذكارى قائما فى مدخل مدينة عصب وكان يعتبر من إحدى معالم المدينة، لكن الامبراطور هيلى سلاسى عندما زار عصب بعد استيلائه على إريتريا أمر بازالته حتى لا يعطى شرف مقاومة السلاطين العفر للغزو الإيطالى الذى رحب به الأباطرة الأحباش، ووقع معهم إمبراطورهم منليك اتفاقية تعترف بشرعية استيلائهم على إريتريا عام ١٨٩٠م ، وتقاسم معهم السيطرة على السلطنات العفرية والإسلامية (١).

وبعد القضاء على البعثتين بدأ الإيطاليون فى تكثيف العمليات العسكرية باتجاه بيلول وعد وافمبو وودى، واستمروا فى مواصلة زحفهم نحو معاقل قوات سلطنة قريفو، واستمرت مقاومة القوات العفرية لسنوات طويلة· وعندما اشتد الحصار عليهم لتفوق الإيطاليين عددا وعدة زار السلطان يسن حيسما أديس أبابا التى كانت تسمى آنذاك أنطوطو (Antoto) ؛ لمقابلة الملكة زوديتو إمبراطورة إثيوبيا وولى عهدها رأس مكونن الذى أصبح فيما بعد إمبراطورا لإثيوبيا تحت اسم هيلى سلاسى، طلبا للدعم بحكم الجوار وباعتبار

---

(١) محمد عثمان أبو بكر : مرجع سابق ·

صورتان للسيد أحمد محمد أحو ابن السلطان محمد أحو

مع المؤلف محمد عثمان أبو بكر فى أديس أبابا

سلطنة قريفو تعتبر الخندق الأول للدفاع عن المنطقة وأنها تخوض معركة الجميع · وأنه فى حالة انهيار مقاومتها سوف يواصل الغزاة الإيطاليون زحفهم حتى يتموا سيطرتهم على المنطقة بأسرها· ولكن لم يجد السلطان يسن حيسما أى تجاوب من حكام إثيوبيا، وعاد الوفد العفرى برئاسة السلطان يسن حيسما بخفى حنين ، بل – ولسخرية القدر – عاد معظم أعضاء الوفد الذى كان يضم القادة وعلية القوم وقد أصيب العديد منهم بمرض الجدرى الذى كان متفشيا فى الحبشة ليصرع أكثر من مائتين من خيرة قادتهم العسكريين وجنودهم· وجدير بالذكر أن السلطان يسن حيسما كان أول سلطان عفرى يزور المملكة الحبشية ·

وقد استغلت السلطات الإيطالية هذا الوضع المتردى فى السلطنة وشددت من هجماتها على المقاومة العفرية، وتمكنت من تدمير سلطنتهم نهائيا بعد تصفية السطان الشهيد يسن حيسما عن طريق الخداع والغدر والخيانة ·

ولم يبق من جيش السلطنة سوى عدد محدود تحت قيادة السلطان محمد أحو الذى أصبح سلطانا على ما تبقى من أراضى السلطنة خارج سيطرة القوات الإيطالية · وقد استمرت مقاومة العفر بقيادة سلطانهم الجديد والذى لم يكن تجاوز السادسة والعشرين من عمره · وقد شن حرب عصابات ضد الإيطاليين متخذا من منطقة أورا معقلا له وقاعدة انطلاق لعملياته العسكرية· وظل فى مقاومته حتى عام ١٩٣٥م عندما غزا الإيطاليون الحبشة واستولوا عليها ، فوجدها الإيطاليون فرصة سانحة لتصفية حسابهم مع عدوهم التاريخى اللدود ، فحاصروه من كل الاتجاهات وتمكنوا من أسره بعد معركة طاحنة سقط فيها الكثيرون من الجانبين ، وأخذ أسيرا إلى أسمرا ومعه ابن

المناضلان أحمد محمد أحو ومحمد أبو بكر (لومبا)

عمته أحمد شحيم من قبيلة أنكالا ، وهو يعيش حتى يومنا هذا فى مدينة عصب· وتم وضعهما فى زنزانات إنفرادية بسجن أسمرا العمومى وظلا رهن الاعتقال حتى هزيمة الإيطاليين فى الحرب العالمية الثانية، وأفرجت عنهما الإدارة البريطانية التى حلت محل الإيطاليين فى إريتريا عام ١٩٤١م (١)·

وعاد السلطان محمد أحو إلى أورا وبدأ فى إعادة تنظيم شئون سلطنته فى بيرو على ضوء المستجدات والتطورات التى حدثت فى فترة اعتقاله · ولايزال يعيش السلطان محمد أحو حتى الآن وقد تجاوز عمره التسعين عامـــا ·

وتوجد فى إطار هذه السلطنة قبائل عفرية كثيرة بجانب العشائر المتفرعة من عساقلى الذى أسس سلطنة قريفو حيث أنجب عساقلى أربعة أبناء هم :

١ – برعلى (المجعد)·

٢ – عسا أحو·

٣ – عصب بكرى·

٤ – عسا قعص·

وبينما استقر أبناء برعلى فى قريفو يتولون أمور السلطنة التى أسسها والدهم وآل إليهم أمرها من بعده، انتشر بقية إخوته فى مناطق أخرى من السلطنة يساهمون فى توطيد دعائم حكم الأسرة ويحمون أطرافها البعيدة ويدافعون عن حدودها المترامية· وتنحدر من سلالاتهم القبائل التالية :

---

(١) أحمد محمد أحو : بحث غير منشور ·

١ – عسا أحو : وتنحدر منه قبائل حرتو ويتواجدون ابتداء من عد حتى إقليم تيجراى ٠

٢ – عصب بكرى : ويتواجدون بدءا من الشواطئ الإريترية حتى إقليم تيجراى الإثيوبى ٠

٣ – عسا قعص : ويتواجون فى منطقة شبه جزيرة بورى وبردولى وقلعلو؛ ومنهم قبائل عس محمدو ، قعص سمبو، على كيفرتو، عد أحمدو، وعس مومنتو ٠

وبر على هو الذى وضع أول قانون عرفى للعفر وتعرف بـ (بر على مدعه) أى قانون بر على ويعتبر قانونا شاملا ومفصلا، لم يترك شاردة ولا واردة إلا وضع لها حكما ، فى كل المجالات السياسية والاجتماعية والجنائية٠

وفى مراحل لاحقة وضع بدتو (Budatto) من سلالة عصب بكرى قانونا اقتبس فيه الكثير من قوانين بر على ، أخذا فى الاعتبار ظروف منطقته وما استجد من التطورات فى المجتمع العفرى ، واعتبر قانونه الذى عرف بـ (بدتو مدعه) تطويرا للقوانين التى وضعها بر على ٠

ولا يزال العفريون يحتكمون فى كثير من أمورهم إلى هذا القانون العرفى الذى وضعه حكماؤهم وعباقرتهم من أمثال بر على وبدتو ٠

٥ – سلطنة أوسا :

تعتبر سلطنة أوسا من أهم السلطنات العفرية وأقواها على الإطلاق،

ويكفى أن نشيرإلى أن إمارة هرر كانت تابعة لها فى وقت من الأوقات. وتقع هذه السلطنة على ضفاف نهر أواشى ، وهى بمثابة واحة فى قلب الصحراء تحتوى على أخصب الأراضى الزراعية، ويرجع قيامها إلى أواخر القرن السادس عشر الميلادى.

ويعود الفضل فى تأسيس هذه السلطنة إلى الفتوحات الكبيرة والانتصارات الباهرة التى حققها القائد العظيم « كيعو » من أحفاد موداييلى إبراهيم على قوات الإمام سلمان الذى كان أميرا على تلك البلاد ، ممهدا الطريق لسيطرة قبيلة موديتو – بقيادة إيداحيس بن كدافو – على البلاد بعد أن أجهز على البقية الباقية من جيش الإمام سلمان ، ليعلن سلطنته التى لا تزال قائمة حتى يومنا هذا تحت زعامة السلطان على مراح .

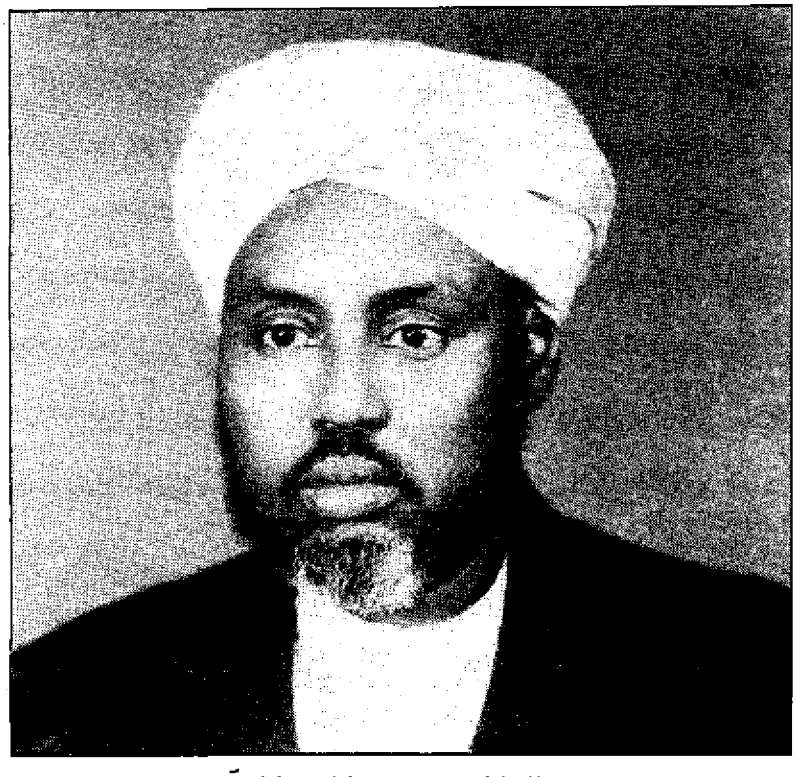

صورة للسلطان على مرح سلطان سلطنة آوسا

وقد عرفت هذه السلطنة الجديدة – التى قامت على أنقاض إمارة بنى سليمان – فى بادئ الأمر باسم سلطنة إيداحيسو ، نسبة إلى الإيداحيس الكبير جد كدافو ، وتعاقب على حكمها عدد من السلاطين الأقوياء ، منهم كدافو يايو وكدافو محمد وإيداحيس محمد والسلطان حنفرى محمد الذى حكم السلطنة ستون عاما وتوفى سنة ١٨٦٣م (١) .

ويعتبر سلطان أوسا تاريخيا سلطان عموم العفر والرئيس الأعلى للعفر، مما جعل له نفوذا كبيرا عليهم، وذلك لموقع السلطنة العام وقوتها العسكرية والاقتصادية (٢).

وقد شهدت سلطنة أوسا عهدها الذهبى إبان حكم السلطان محمد حنفرى الذى عرف بالعبقرية وبعد النظر، إذ عمل على تحسين علاقاته بجيرانه – سواء كان مع الإدارة الفرنسية فى جيبوتى أو السلطة الإيطالية فى إريتريا – وعمل على تطوير سلطنته كما طور القانون العرفى الذى كان سائدا بما يخدم مصلحة المجتمع العفرى . وعندما كان فى حوالى الستين من عمره وقع السلطان محمد حنفرى من على ظهر فرسه وأصيب فى رأسه ، مما أدى إلى إصابته بشلل تام وفقدان النطق. وأوصى ابن أخيه محمد إيداحيس بتسيير أمور السلطنة مؤقتا ، علما بأنه كان له أبناء من زوجتيه اللتين انقسما إلى جناحين متصارعين، حيث وقف الأشقاء الذين كانت تدعى والدتهم رقيه من قبيلة معنديتا فى جانب – ويدعمهم محمد إيداحيس الذى كان كلفه عمه

---

(١) عثمان صالح سبى : مرجع سابق ، ص ١٤٢.

(٢) عوض داود محمد : مرجع سابق ، ص ١٩ .

السلطان للإشراف على أمور السلطنة عندما أقعده الشلل – بينما رفض الجناح الآخر الذى عرف بـ (المدينانى) نسبة إلى أمهم (مدينة من قبيلة دميلا) فقد رفض هيمنة إخوانهم واستئثارهم دونهم بالسلطة وكان أبرز أعضاء هذا الجناح يايو محمد حنفرى · وبعد وفاة السلطان تأجج الصراع بين الطرفين وانفجر القتال بينهما، مما أدى إلى تدخل السلطان حيسما ، سلطان بيرو وهو من أبناء عمومتهم كما ذكرنا سابقا لوقف القتال بين الإخوة · وتم الاتفاق بينهم على تقاسم السلطة حيث يتولى أحد الطرفين حكم الإقليم الشرقى من السلطنة بينما يتولى الطرف الآخر حكم الإقليم الغربى مع الاحتفاظ بوحدة السلطنة · لكن هذه الاتفاقية لم تدم طويلا، فسرعان ما نشب القتال بين الطرفين مجددا، ليسيطر على الوضع الجناح الذى كان يؤيده محمد إيداحيس، مما دفع الجناح الآخر إلى الفرار من المنطقة فلجأ يايو إلى سلطنة بيرو ، بينما لجأ شقيقه الثانى إلى سلطنة تاجوره· أما الشقيق الثالث فقد لجأ إلى منطقة جوانى فى بعدو أواشى، والتى كانت تقطنها قبائل عفرية خارج سيطرة السلطنة ·

وبعد فترة من الزمن بدأ الجناح المنهزم فى جمع أنصارهم وأتباعهم فى كل من سلطنتى بيرو وتاجوره ، لشن الهجوم على السلطنة، واستعادة حقوقهم المغتصبة من أشقائهم · وعندما علم محمد إيداحيس – الذى كان له ضلع كبير فى إبعاد يايو وأشقائه باستعداداتهم وحشوداتهم – بدأ فى نقل أمواله ومواشيه وجميع ممتلكاته إلى منطقةسمو فى بعدو، وذلك تحسبا للأمور واستعدادا للرحيل والانتقال إليها فى حالة انتصار يايو وأشقائه·

وبدأ الهجوم المرتقب بقيادة يايو وأخيه حنفرى على السلطنة من جميع المحاور ، وفى هجوم صاعق تمكنوا من الاستيلاء على السلطنة وفر محمد إيداحيس الذى كان قد نقل كل ممتلكاته مع أفراد أسرته إلى منطقة سمو كما ذكرنا ٠ أما الجناح الذى كان يسانده فقد انهزم فى المواجهة وتم أسرهم وقتلهم مع أنصارهم ٠ وهكذا دانت الأمور ليايو محمد حنفرى، الذى أصبح حاكما مطلقا ومهيمنا على مقدرات السلطنة ، وكان شديد البأس مهيبا فخضعت له كل القبائل المجاورة٠

وبعد وفاة السلطان يايو خلفه على الحكم ابنه محمد ، وحسن علاقاته مع السلطات الإيطالية فى إريتريا والتى وجهت له الدعوة لزيارة العاصمة الإيطالية روما٠ وقد لبّى الدعوة وقام بزيارة إيطاليا التى أطلقت عليه لقب سلطان عموم العفر، وقد عرف عنه طموحه لإقامة دولة عفرية موحدة (١) ٠

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية بينما كان الإيطاليون يتعرضون لهزائم فى جبهات القتال المختلفة ضد الحلفاء، بدأ السلطان محمد يايو فى فتح قناة الاتصال مع الحلفاء عبر الإدارة البريطانية وتعهد لهم بطرد القوات الإيطالية المرابطة فى أراضى سلطنته ومناطق نفوذه، على أن يعترف الحلفاء بدولة عفرية موحدة تحت زعامته٠ واتفق مع البريطانيين وتعهدوا له بتحقيق طموحاته للاستفادة منه فى إضعاف خصومهم الإيطاليين وإنهاء وجودهم فى منطقة القرن الإفريقى، لكنهم سرعان ما تنكروا له عندما طلب منهم

---

(١) انظر ملحق (ب) الوثائق الإيطالية ٠

الإمبراطور هيلى سلاسى عدم الموافقة على إقامة دولة عفرية فى القرن الإفريقى، موضحا لهم خطورة إقامة مثل هذه الدولة فى المنطقة، ومذكرا إياهم بالحروب الدينية التى شنها الإمام أحمد بن إبراهيم (قرين) عندما تمكن من إقامة دولة العدل الإسلامية التى كان معظم قادتها وأكثر من نصف جنودها عفريون، واستطاع بهم تدمير المملكة الحبشية فى القرن السادس عشر الميلادى· وعندما شعر السلطان محمد يايو بالموقف البريطانى لجأ إلى الفرنسيين الذين كانوا يسيطرون على جيبوتى ، لكن حظه معهم لم يكن أفضل من حظه مع البريطانيين ·

حبيب محمد يايو ابن السلطان محمد يايو سلطان آوسا سابقًا

مقاتل عفرى بعد التحرير من جيش جبهة التحرير العفرية

قوات عفرية تدخل العاصمة العفرية (آساعيتا)

أمام هذا الوضع، وشعور السلطان محمد يايو بخطورة الأمر ، وخوفا على سلطنته من العدو الإثيوبى المتربص ، لم يجد بدًّا من أن يطلب من الإدارة البريطانية ضم سلطنته وملحقاتها إلى حكم الإدارة البريطانية فى إريتريا ، لكنهم تجاهلوا طلبه هذا حيث كان رأيهم قد استقر على ترك السلطنة لقمة سائغة لإثيوبيا فى إطار السياسة العامة التى كان ينتهجها الغرب لحماية الدولة الحبشية التى يعتبرونها حليفة لهم ٠

ظل الوضع على هذا الحال إلى أن حانت الفرصة التاريخية للإمبراطور هيلى سلاسى الذى كان يتخوف من مواجهة قوات السلطان محمد يايو الذى كان تمكن من تسليح قواته تسليحا جيدا بعد استيلائه على أسلحة الجيش الإيطالى المرابط فى منطقته والذى اضطر إلى الانسحاب منها مخلفا وراءه بعض أسلحته ٠ وسنحت الفرصة للإمبراطور الإثيوبى عندما دب الخلاف بين السلطان محمد يايو ووزيره الأول فتورارى يايو حمدى الذى لجأ إلى الإمبراطور وكشف له كل أسرار السلطان ومخططاته ومخابئ أسلحته، كما أبلغه بأنه تمكن من تجنيد أعداد كبيرة ضد السلطان وأنه فى وسعه القضاء على حكمه بما له من نفوذ هناك ، ووافق هيلى سلاسى على خطة الوزير يايو دون أن يتنبه السلطان إلى ما يحاك ضده من المؤامرات ٠

يايو حمدى

حامادو يايو ، أحد السياسيين العفر البرزين فى إثيوبيا، كان عضوا فى البعثة التى صاحبت سلطان اوسا خلال زيارته لموسوليني فى روما · وأصبح صديقا حميما لهيلاسلاسى ، لدرجة أنه رأس جيشا لهيلاسلاسى لأسر منافسه السلطان محمد يايو · وكان المفاوض الرئيسى بين قوات المقاومة العفرية ونظام هيلاسلاسى فى الستينات· توفى فى أواخر عام ١٩٧٢ ·

الاعتداء علي سلطنة أوسا عام ١٩٤٣م :

لقد شهدت سلطنة أوسا العفرية الاعتداء على أراضيها من قبل جيش الاحتلال الإثيوبى فى عهد الإمبراطور هيلى سلاسى، وهى أشد وأفظع حملة عرفها سكان سلطنة أوسا ، وذلك فى ليلة السبت ٢١ ربيع الثانى ١٣٦٣ هـ الموافق ١٩٤٣م ، حيث تقدم جيش الاحتلال الإثيوبى ليلا والناس نيام والسكون مطبق على المدينة · ويقول شاهد عيان لهذه المعركة – عندما يحكى عن ذكريات تلك الليلة المشئومة – أنه سمع أصوات السيارات وأزيزها من بعيد فاستيقظ، وكانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وفى نفس الوقت حضر رجل اسمه الحاج أحمد حسين، فناداه وخرج إليه، وعندما شاهد السيارات صاح قائلا : (إنها الحرب لقد باغتنا العدو) · وأحصى الرجلين ٧٠ عربة حربية تطفىء أنوارها بعد أن تصل أماكن التجمع وكان قد وصل قبلها ضعف هذا العدد ، ولم يمض دقائق قليلةحتى دوت أصوات المدافع الرشاشة الكثيرة، حيث تحول الوادى إلى بركان والطلقات النارية تخترق الظلام كأضواء الشمس التى تخترق السحب الكثيفة، وصار الوادى جحيما فى لحظات · وعندما زحف الجيش من المطار إلى المدينة انقسم إلى قسمين : قسم اتجه إلى مقر السلطان وقسم أخر اتجه إلى مقر ابنه الكبير · فالقسم الذى اتجه إلى مقر السلطان كان أشد وأعنف فى هجومه ، واستولى بغتة على مخزن الأسلحة ، فدافع العفريون بما لديهم من الأسلحة البيضاء، غير أن رشاشات الأعداء قضت عليهم قضاء تاما وفرَّ من نجى منهم إلى الغابات مع ابن السلطان ، ووجهت قوات الأحباش

الغازية هجومها على مقر السلطان· وبينما كانت المعركة غير المتكافئة قائمة كالجحيم، والقوات الحبشية الغازية تحاصر القصر وتقصفه من كل الاتجاهات، هرعت زوجة السلطان من غرفتها إلى الحصن الذى كان يرقد فيه السلطان مريضا، فبادرها أحد الضباط الأحباش بدفعة من طلقات رشاشه فأرداها قتيلة وحمل الجنود الأحباش السلطان المريض فى عربة من عرباتهم العسكرية · وما أن بزغ فجر اليوم الثانى طلع النهار على البلدة التى احترقت بيوتها، مخلفة وراءها جثث الضحايا من النساء والأطفال حوالى ٩٠ وما يقرب من ١٠٠ جثة من الرجال منتشرة بين ممرات الطرقات وزنقات البيوت · وهكذا انتهت هذه الحملة البربرية الوحشية من قِبَل قوات الاحتلال الإثيوبية على تلك البلدة · وقد كانت هذه الحرب خديعة وخيانة دبرت بإحكام بالغ ونفذت بدقة متناهية ، حيث كان الغرض من العملية هو اغتيال السلطان ·

وهكذا تعرضت سلطنة أوسا – وهى آخر السلطنات الإسلامية فى الحبشة – لهجوم غادر يتنافى مع أبسط مبادئ القوانين والاتفاقيات وحسن الجوار، وقد وراح ضحيتها السلطان محمد يايو الذى وضع فى سجن الم بغا فى أديس أبابا حيث لقى حتفه· ولكن سلطنة أوسا لم تذهب لقمة سائغة للأحباش كما كانوا يريدون ، حيث تولى حكم السلطنة بعد محمد يايو السلطان على مراح حنفرى فى سنة ١٩٤٥ وأصبح سلطان سلطنة عفر بعد أن أزاحت إثيوبيا السلطان محمد يايو الذى كان سجينا لديها · والسلطان على مراح هو ابن عم السلطان السابق · وقد بايعه الشعب العفرى سلطانا على سلطنة أوسا خلفا للسلطان محمد يايو · وهى تعد آخر سلطنة من السلطنات

الإسلامية التى شهدتها إثيوبيا فى العصور القديمة والوسطى · ولم تتوقف الاعتداءات الإثيوبية على سلطنة أوسا · ففى عهد هيلى سلاسى أيضا عام ١٩٥٢م بدأ التوتر بين السلطان على مراح والحكومة الإثيوبية التى كانت تسعى دوما لإنهاء وضع السلطنة ، تمهيدا لضمها نهائيا إلى إمبراطوريتها· لكن السلطان على مراح أفسد محاولات إثيوبيا ومخططاتها الرامية إلى إزالة الكيان العفرى فى السلطنة، حيث خاض السلطان على مراح نضاله الطويل ضد القوات الإثيوبية وأعد العدة لمواجهة إثيوبيا · ولما اشتدت عليه هجمات الجيش الإثيوبى إنسحب بقواته إلى حدود جيبوتى – وكانت جيبوتى آنذاك تحت الاستعمار الفرنسى – وقام بتوزيع قواته على شكل مفارز لحرب العصابات فى مناطق أوسا المختلفة لمقاومة قوات الاحتلال الإثيوبية · ثم عاد السلطان إلى مقر سلطنته بعد عامين تقريبا عندما تم الصلح بينه وبين الإمبراطور هيلى سلاسى الذى خشى عواقب استمرار المواجهة مع العفر، الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى اتساع دائرة الصراع فى المنطقة بأسرها · ونصت الاتفاقية على بقاء السلطنة على ما كانت عليه ، على أن تظل على ولائها الرمزى للإمبراطور فى إطار الإمبراطورية الإثيوبية، وأن تكون للسلطان الصلاحية المطلقة فى إدارة بلاده· وهكذا ظل الحال حتى بداية عهد منجستو هيلى مريام الذى نقض الاتفاقية وتجاهل استقلالية السلطنة ومكانة السلطان ·

وفى عهد منجستو شهدت السلطنة اعتداء آخر تم فيه احتلال السلطنة بعد أن ارتكب جيش منجستو مجزرة دموية ، وأحرق جميع القرى المجاورة

---

(١) محمد عثمان على خير : العفر يحمون الإسلام فى القرن الإفريقى ، جريدة المسلمون ، بتاريخ ١٩٩٣/٦/٢ ·

فى سلطنة أوسا ، وراح ضحية هذا العدوان البربرى مئات من الأطفال والنساء والشيوخ، ولم تنجُ عاصمة السلطنة (أسعيتا) من التدمير والخراب والنهب والسلب، بينما انسحبت قوات السلطان إلى الريف والجبال حيث نظمت صفوفها لخوض حرب عصابات طويلة الأمد لمقاومة الجيش الإثيوبى (١) . ولجأ السلطان على مراح إلى جيبوتى ثم إلى المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٥م، ووجد لدى المملكة العربية السعودية الضيافة الكريمة، حيث وقفت معه فى كفاحه ضد قوات الاحتلال الإثيوبى لبلاده وأمدته بمساعدات مادية

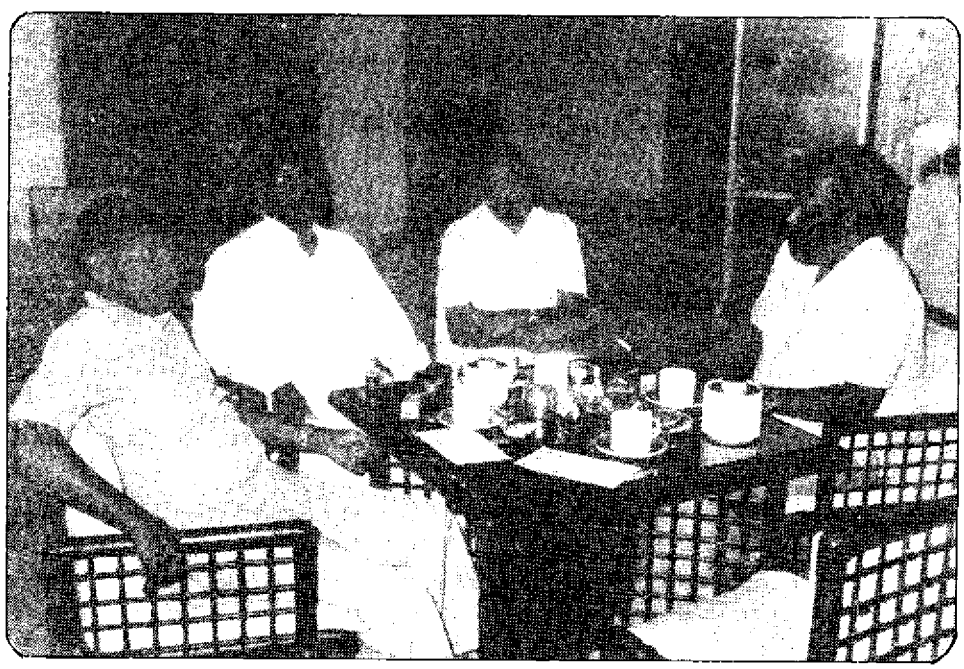

الوفد العفرى برئاسة حبيب سلطان على مرح
فى أثناء زيارته لأبو ظبى وبصحبتهم المؤلف محمد عثمان أبو بكر
ممثل جبهة التحرير الإريترية فى الخليج مرحبا بهم فى الإمارات

---

(١) محمد عثمان على خير : العفر يحمون الإسلام فى القرن الإفريقى ، جريدة المسلمون ، بتاريخ ١٩٩٣/٦/٢ .

وسياسية ومكنته من مواصلة كفاحه حتى انتصار الثورة الإثيوبية وسقوط نظام منجستو ٠

وفى فترة الكفاح المسلح ضد نظام منجستو أسس السلطان على مراح جبهة التحرير العفرية برئاسته ، وبدأ التنسيق مع جميع فصائل المقاومة الإثيوبية التى كانت تعمل على إسقاط النظام الديكتاتورى وتحرير الشعوب الإثيوبية من قبضته، كما بنت الثورة العفرية علاقات وطيدة مع الثورة الإريترية بمختلف فصائلها ، كما قامت الثورة الإريترية بمساعدة قوات السلطان بالسلاح والتدريب بما لها من خبرة فى مقارعة الجيش الإثيوبى ٠ كما قامت بتقديمه إلى أصدقائها فى العالم العربى والإسلامى ٠

دور سلطنة أوسا بزعامة السلطان علي مرح في التطورات الأخيرة في إثيوبيا : (١)

عكست التطورات الأخيرة فى إثيوبيا ومنطقة القرن الإفريقى الدور الفعال (لسلطنة أوسا العفرية) التى أثبتت طوال التاريخ أنها معقل للإسلام والمسلمين فى الحبشة وعموم منطقة القرن الإفريقى ٠ لقد شكلت السلطنة الإطار القوى والمتماسك فى صد كل الهجمات التى واجهت تلك المنطقة ، حيث شهدت السلطنة – قبل سقوط نظام الإمبراطور هيلى سلاسى عام ١٩٧٤م – نهضة زراعية شاملة قادها السلطان على مرح حنفرى مثل أسلافه القدامى من سلاطين العفر الأقوياء، وذلك باعتماده على الوسائل الزراعية الحديثة وجلب الخبراء والمهندسين للإشراف على مزارع القطن والفواكه والخضروات، كما أن هناك مؤشرات قوية لوجود أنواع مختلفة من المعادن فى باطن الأرض العفرية،

---

(١) على عثمان المبارك : جريدة المسلمون : مقابلة مع السلطان على مرح ، ١٣ ديسمبر ١٩٩٤، العدد ٢٥٩ ٠

وهذه الخيرات التى حبا الله بها هذه المنطقة كانت من الأسباب والدوافع التى دفعت حكام الحبشة إلى الدخول مع السلطنة فى حروب دائمة ومتكررة. وبقت السلطنة مستقلة حتى عام ١٩٣٠م ، ومع انتهاء الوجود المصرى التركى من سواحل البحر الأحمر والإمارات الإسلامية لم تعد السلطنة قادرة على التحرك باستقلالية خاصة كما أوضحنا سابقا، فقد أصبحت محاصرة بالوجود الإيطالى فى إريتريا والفرنسى فى جيبوتى، بالإضافة إلى تطور الأطماع الحبشية، مما أدى فى النهاية إلى تعرض السلطنة لاعتداءات كثيرة من حكام إثيوبيا. وفى عام ١٩٥٦م عندما كان النفوذ الصهيونى فى الحبشة فى أوجه، طلب الإمبراطور هيلى سلاسى من السلطان على مراح أن يدخل فى اتفاقية تجارية مع النظام الصهيونى لشراء اللحوم والمواشى من منطقة السلطنة العفرية المعروفة بثروتها الحيوانية الكثيرة، لكن هذا الطلب قوبل بالرفض من السلطان تضامنا منه مع إخوانه المسلمين وأشقائه العرب وتأكيدا لرفضه للاحتلال الصهيونى لفلسطين. وقد شهدت السلطنة فى عهد السلطان على مراح خلال فترة صراعها مع هيلى سلاسى نشاطا كبيرا فى مجال التعليم، حيث أقامت المعاهد الدينية والمدارس ، ونشرت تعاليم الدين الإسلامى واللغة العربية والقرآن الكريم وغيرها من العلوم الحديثة. وقد تخرج من هذه المعاهد والمدارس أعدادا كبيرة من الطلاب العفريين، واصل بعضهم تعليمه العالى فى الخارج خاصة بالقاهرة التى فتحت أبوابها لأبناء منطقة القرن الإفريقى دون قيد أو شرط ، وكثيرون منهم ساهموا فى عملية الجهاد والبناء فى مناطق العفر . ويوجد اليوم بالقاهرة أكثر من ٢٠٠ طالب

عفرى من مختلف مناطق العفر تضمهم رابطة أبناء العفر، ويقومون بإسهامات كبيرة فى بلورة أوضاع العفر فى جميع المجالات الثقافية والاجتماعية والسياسية ٠

جهاد أبناء السلطنة :

فى مطلع عام ١٩٧٥م اجتاحت القوات الإثيوبية كما أوضحنا سابقا أراضى الشعب العفرى، بما يشبه حرب الإبادة الجماعية ضد الشعب الأعزل، ولكن الشعب العفرى واجه القوات الإثيوبية بكل صلابة وثبات بالرغم من إمكانياته المحدودة وغير المتكافئة٠ وقد أكد اجتياح نظام منجستو للسلطنة عن تحقيق أطماع إثيوبيا التاريخية التى كانت تتحين الفرص لإزالة السلطنة العفرية باعتبارها – كانت وما زالت – عمقا مهما لمسلمى الحبشة جميعا وليس فقط للعفريين، وذلك من أجل إنهاء هذا العمق الإسلامى الذى كانت تتمتع به السلطنة ٠ وكانت إثيوبيا دوما تخطط من أيام هيلى سلاسى حيث كان حلم حكام إثيوبيا دائما هو إنهاء دور السلطنة باعتبارها آخر السلطنات الإسلامية التى احتفظت بوجودها وكيانها المستقل حتى التاريخ الحديث٠ ولقد حاول هيلى سلاسى الدخول إلى الأراضى العفرية ، لكنه كان يتردد ويخاف من نتائج هذا الاجتياح وهو يعانى من الحرب فى إريتريا ، التى وقفت فى وجه أطماع إثيوبيا التوسعية وكانت سببا مباشرا فى سقوط نظامه ٠

وبعد سقوط نظام منجستو والانتصار العظيم الذى حققته شعوب إثيوبيا بقيادة الجبهة الديمقراطية لشعوب إثيوبيا ، بدأت الحوارات واللقاءات مع الزعيم السلطان على مرح ، وخيرته الحكومة الانتقالية فى الاستقلال

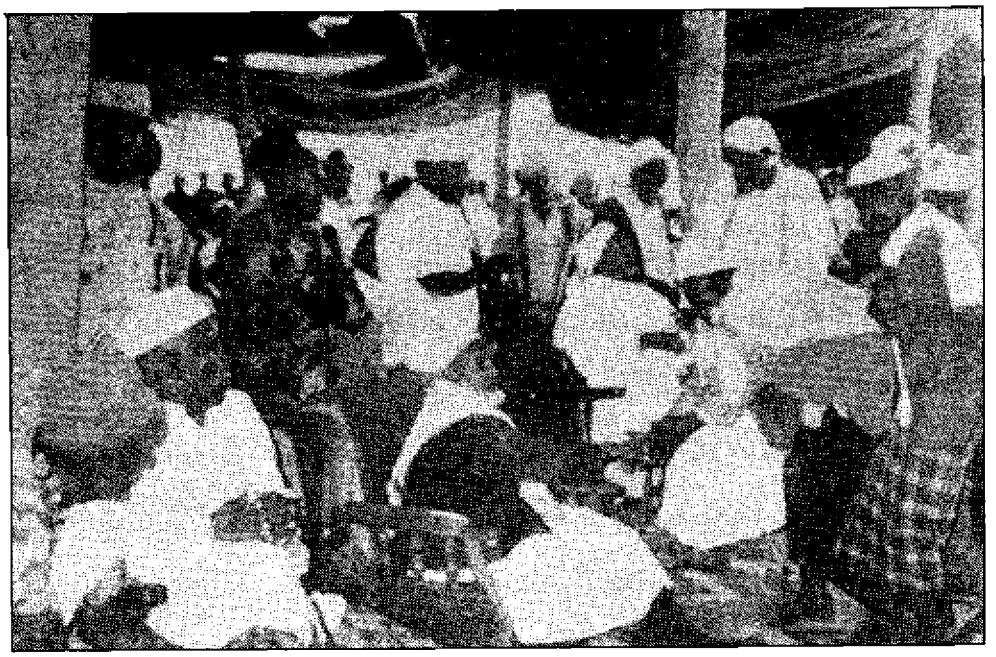

السلطان على مرح فى المؤتمر الأول لقومية العفر بعد سقوط منجستو

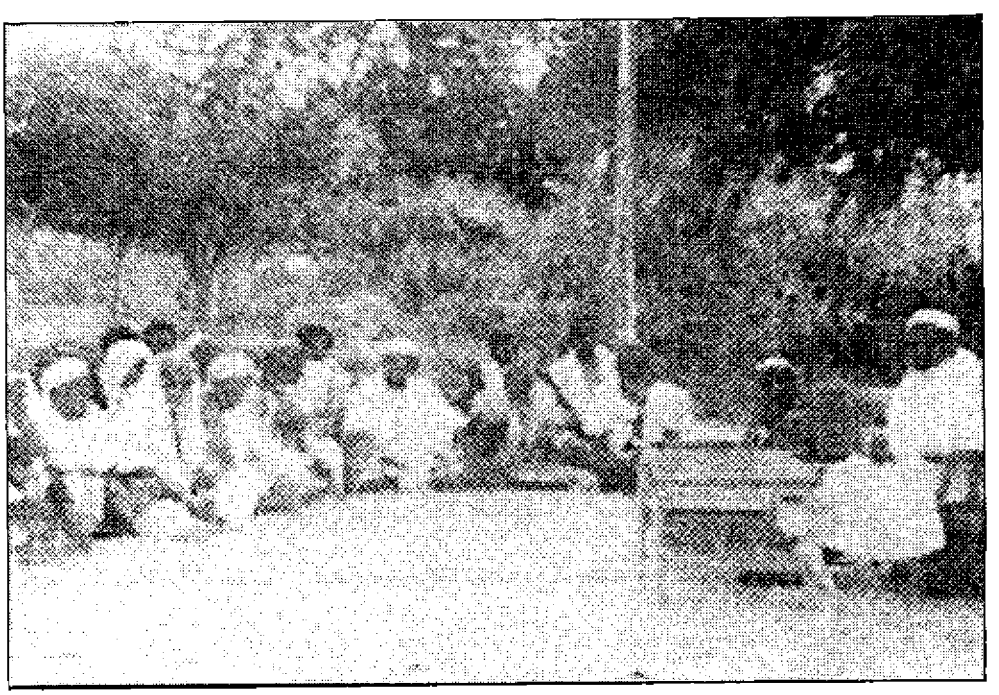

السلطان على مرح يلقى محاضرة أمام حشد من شعب العفر بعد التحرير

بسلطنته بحكم وضعية السلطنة السابق ، لكنه تقدم بمشروع بديل يؤكد بعد نظره السياسى وتطلعاته الإسلامية الواسعة وإحساسه بمسئوليته تجاه شعب العفر المتواجدين فى الأقاليم الإثيوبية الأخرى ولاسيما إقليم تيجراى· وتضمن مشروعه ، أنه يمكن أن يقبل بالحكم الذاتى فى إطار إثيوبيا بشرط أن يتم ضم العفر الموجودين فى الأقاليم الإثيوبية المختلفة فى إقليم عفرى واحد، وهى أقاليم ولّو وتيجراى وشوا وهرر، وتكون الأقليم تحت إدارته · ووافقت حكومة زيناوى على هذا الشرط ونفذت الحكومة الانتقالية طلبه وضمت سائر أراضى العفر بسكانها فى إطار إقليم عفرى واحد بزعامة سلطنة أوسا وعاصمته مدينة أسعيتا التى هى عاصمة السلطنة فى نفس الوقت · بل وجد هذا المبدأ قبولا واستحسانا لدى جميع القوميات الإثيوبية وأقرته الحكومة الانتقالية فى إثيوبيا بوصفه مبدأ أساسيا لجميع القوميات ·

وهذه المواقف الواضحة عززت من مكانة السلطان وأكسبته حب العفريين باعتباره زعيم روحى وبمثابة الأب لكل العفريين، وهذا الاتجاه أدى إلى لجم القوى الخارجية المعادية التى كانت تتربص بالسلطنة لزجها فى مشاكل داخلية وخارجية والتى كانت ستعرقل جهودها من أجل معركة البناء والتعمير ·

وفى مؤتمر المصالحة الوطنية الإثيوبية الذى ضم كل الأحزاب السياسية والشخصيات الوطنية الإثيوبية والذى عقد فى أديس أبابا عام ١٩٩٢م أعلن السلطان على مراح تمسكه بوحدة إثيوبيا ضمن مشروعه السياسى الذى أشرنا إليه سابقا · وبهذا الموقف وجد التأييد والاحترام من كل القوى السياسية الإثيوبية وأصبح موضع ثقة الحكومة المركزية الإثيوبية، التى أصبحت ترجع إليه وتستأنس برأيه فيما يتعلق بأمور المسلمين فى إثيوبيا

كلها· وأصبح ابنه حبيب سلطان على مـراح رئيس الحكومة الإقليمية المحلية ، وقد شكل حبيب أول وزارة إقليمية فى أسعيتا عاصمة الإقليم ·

اقتصاد سلطنـة أوسـا :

فى أرض أوسا يكوّن النهر سلسلة من البحيـرات الصغيرة التى استغلت ميـاهها فى الزراعة ، وذلك باسـتخدام نظام من الحواجـز والسدود التى أقامـها فى الماضى الحرفيون العرب بطلب من سلطان أوسـا ·

صورة السلطان على مرح سلطان سلطنة آوسا فى الوسط مع حاشيته بعد العودة إلى بلاده عقب انهيار نظام منجستو عام ١٩٩١

ويعتبر العفريون أوسا جنة (عدن) ، ففى أراضيها يزرع الذرة والقطن والتبغ وتربى آلاف الماشية· وكانت تزرع أرض السلطنة سابقا باسم السلطان على أساس إقطاعى، لكن هذا الموقف قد تغير بعد أن أصبحت سلطنة أوسا تضم فى إطارها جميع الأراضى العفرية فى إثيوبيا ، وأصبحت السلطنة جزءا أساسيا ومكملا لإقليم العفر فى ظل التقسيمات الإدارية التى أقرتها الحكومة الانتقالية فى إثيوبيا ·

ويقول الإنجليزى نسبيت Nesbitt (١) وهو أول أوروبى تمكن من زيارة سلطنة أوسا عام ١٩٢٧م : (إن فى سلطنة أوسا نظاما للرى أنشأه العرب الذين استدعاهم السلطان خصيصا لهذا الغرض قبل عدة أجيال) · ويصف نسبيت نظام الرى هذا بقوله : (لاحظنا أن التحكم فى فيضان نهر الآواشى بحواجز أو سدود تسمح للماء بالانسياب فقط بعد بلوغ منسوب معين، وعندئذ ينساب الماء فى قنوات الرى أو يسمح للماء بأن يغمر مناطق مهملة معينة · وبهذه الطريقة أمكن التحكم فى الفيضان وإبقاء الماء فى منسوب معين دون الحواجز التى عملت على تنظيم انسياب الماء لتزويد الواحة به) ·

كما يذكر الرحالة تشيسنجر (Thesiger) وقد زار سلطنة أوسا عام ١٩٣٣م، بأنه علم بأن على الطريق الغربى لبحيرة عدوبد Adbada جسورا أنشأها العرب فى قديم الزمان · وبفضل الصحارى المقفرة التى تحيط بالسلطنة وتحميها من الغارات الآتية إليها من المرتفعات الحبشية ، احتفظت السلطنة باستقلالها التام إلى عام ١٨٩٥م حينما جهز إمبراطور الحبشة

---

(١) نسبيت Nesbitt : مرجع سابق·

منليـــك حملـة إلى أوسـا أرغمت سلطانها على التبعية لإمبراطور الحبشة بأداء جزية له ، وظلت سلطنة أوسا شبه مستقلة وإن كانت تابعة شكليا للحبشة (١).

وأهم القبائل التى توجد فى إطار سلطنة أوسا هى قبيلة دمهيتا – وتنتمى إليها الأسرة الحاكمة – وأوغعنوك ومادیما وغوميار وعبليه وموديتو وغاليلا وعدكالتو ومفيديتا.

ومن خلال دراستنا فى أسماء هذه القبائل كنا قد أشرنا لتسمية عدومار وعامره وفى ختام هذا الفصل نورد التسمية الأخرى لهذه الأسماء .

---

(١) تشيسنجر Thesiger : مرجع سابق .

نهر أواشى أثناء الغروب

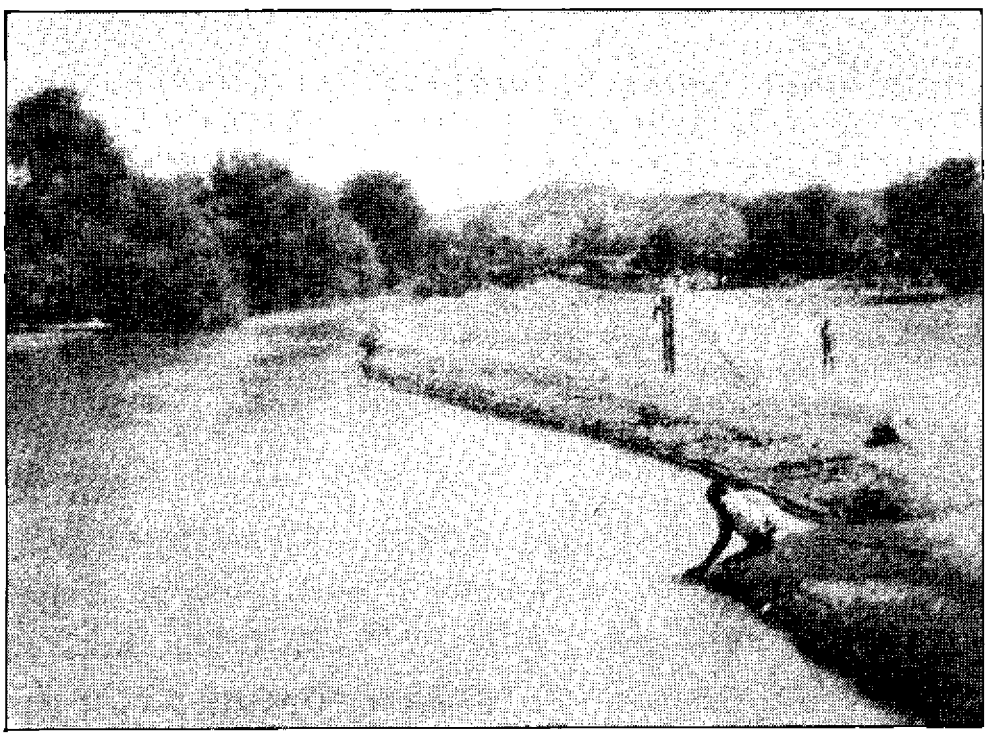

نهر أواشى فى آوسا

رواية أخرى لتسمية عدو مار وعسامرا :

تقول بعض الروايات العفرية أن تسمية عسامرا (الحمر) وعدومرا (البيض) لا تدل على عنصرى الأمة العفرية واختلاف جذورهما كما زعمت كتابات بعض المؤرخين الأجانب · إنما أطلقت هذه التسمية فى عصور لاحقة عندما نشب قتال بين سلطنتى أوسا وبيرو من جهة وكل من سلطنات رحيتا وتاجوره وقوبعد من جهة أخرى · وكان سبب الخلاف بين السلطنات الخمس التى كانت تتقاسم حكم المناطق العفرية بعد انهيار مملكة أنكالا، أنه جرت العادة على أن تدفع السلطنات الثلاث – قوبعد، بيرو، أوسا – خراجا سنويا لسلطنتى تاجوره ورحيتا بوصفه نوعا من الولاء لهما باعتبارهما ينحدران من عدعلى الابن البكر لحرا الماحس والذى تنحدر منه كل الأسر العفرية الحاكمة· لكن سلطنتى بيرو وأوسا أخلّتا بالعهود المتعارف عليها وامتنعتا عن أداء الخراج ، بينما ظلت سلطنة قوبعد على ولائها لأسرة عدعلى ، مما أدى إلى اندلاع الحرب بين السلطنات الخمس، سلطنتى أوسا وبيرو فى جانب، وسلطنات تاجوره وروحيتا وقوبعد فى الجانب الآخر ·

وقد استمرت الحروب بين الطرفين لأكثر من مائة عام، وشهدت مناطق درة وموسى على أعنف تلك المعارك ، وكذلك عاصمة سلطنة تاجوره التى تعرضت للتدمير على أيدى قوات سلطنتى أوسا وبيرو اللذين كانا يتفوقان على خصومهم بالعدد والعدة· وكان يقود الجيش الغربى – كما كان يطلق

على محور أوسا وبيرو – قبيلة العتو الشديدة المراس ،وهم فرع من سلالة موديلى إبراهيم · وبعد أكثر من مائة عام من القتال والدمار توصل الطرفان للصلح بإنهاء القتال بينهما ، وانسحاب القوات إلى مواقعها الأصلية واحتفاظ كل سلطنة بحدودها السابقة ، على ألا يطلب عد على الولاء من السلطنات الأخرى، ويظل التعاون بينهم فى إطار الإخوة والمصلحة المشتركة ·

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الحرب لم تكن بين قبيلتين مختلفتين أو بين عنصرين تختلف جذورهما كما كان الحال فى حرب أنكالا وحرا الماحس أو دنكلى ودوبعى قبلهما ، إنما كانت حرب السلطة بين أفراد الأسرة الواحدة ، حيث كان الجميع من أبناء حرا الماحس · ويمكننا القول بأن الحرب أخذت طابعا إقليميا بين سلطنات الشرق وسلطنات الغرب ، حيث كانت كل من سلطنات رحيتا وتاجوره وقوبعد المتحالفة فى شرق البلاد بينما تقع أراضى سلطنتى أوسا وبيرو فى غرب البلاد · وقد أطلق على الجبهة الشرقية (عدو مرا) بينما أطلق على الجبهة الغربية (عسا مرا) · وتعنى كلمة (عدى) فى اللغة العفرية الشروق وكلمة (عسى) الغروب ، ومن هنا جاءت تسمية عسا مرا وعدو مرا التى تطلق على العفريين ·

هذا ومن خلال سردنا لتاريخ هذه السلطنات العفرية قد اختصرنا الحديث حول حدودها الحالية · ويقول الباحث الإنثروبيولوجى :

إن العفر قد استقروا تماما فى بداية القرن التاسع عشر فى الجزء الجنوبى من إريتريا الحالية ، ابتداء من جنوب مصوع على طول خليج تاجورة وعلى ساحل المحيط الهندى (خليج عدن) ٠

وعلى أى حال كانت هذه السلطنات تمارس فقط سيادتها على الشعب العفرى حيث كانت تتمتع باستقلالها الكامل عن أى دولة أجنبية اللهم إلا بعض النفوذ التركى والمصرى فيما بعد (١) ٠ خاصة فى سلطنة تاجورة وزيلع التى كان يحكمها السيد أبوبكر شحيم وهو جد الرئيس على عارف برهان من قبيلة حسبوا العفرية ، وكان على عارف رئيس وزراء جيبوتى قبل استقلالها عام (١٩٧٥/١٩٧٦م) ٠ ويعد من الشخصيات العفرية الوطنية التى لها بصمات فى تاريخ العفر الحديث ٠

---

(١) جلال يحيى : مصر العربية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٣٩ ٠

السلطان على مرح مع مندوب جريدة المسلمون

السلطان على مرح فى مجلس الحكم

السلطان على مرح سلطان سلطنة آوسا بعد العودة إلى أرض الوطن

السلطان على مرح فى قصره